الثقافة والمجتمع

د. محمد عبد العزيز ربيع

الثقافة هي عنصر أساسي من عناصر تكوين المجتمع، ولذا لا يمكن الحديث عن مجتمع دون ثقافة، كما لا يمكن الحديث عن ثقافة في غياب المجتمع. وتقوم الثقافة، كأحد مكونات المجتمع الأساسية، بربط أعضاء المجتمع الواحد بعضهم إلى بعض بروابط معنوية، وإمدادهم بشعور مشترك وأدوات عمل تقوي أواصر الترابط فيما بينهم، وتخلق لديهم إحساسا بالانتماء لمجتمع معين ووطن محدد. وتؤدي الثقافة دورها المجتمعي هذا من خلال ما تشتمل عليه وتقوم بتطويره من عادات وتقاليد وقيم ورموز مشتركة، وما تغرس في أفراد المجتمع الواحد من معتقدات ذات أهمية وأحيانا قدسية، وما تعودهم عليه من سلوكيات ومواقف وطرق تفكير متشابهة إلى حد بعيد. أما المجتمع فيوفر للثقافة المجال الحيوي ذا الأبعاد السياسية والاقتصادية والتكنولوجية التي تتيح لها، وتفرض عليها أحيانا أن تعيش في كنف تلك الأجواء وتواكب تحولاتها، وان تتحول معها من اجل الحفاظ على حيويتها وضمان استمرار وجود المجتمع وحيويته.

حين يتعرض المجتمع لأحداث غير عادية تؤدي إلى تمزقه، وكثيرا ما تتمزق المجتمعات عند تعرضها لحروب أهلية وعمليات غزو أجنبية، تتمزق ثقافة المجتمع أيضا، وتتعدد وتتباين تبعا لذلك أطيافها. وحين تنعزل المجتمعات الإنسانية عن بعضها البعض، وذلك كما حدث بالنسبة للمجتمعات القبلية الأولى التي تحولت إلى الزراعة، تتفتت الثقافات القديمة وتدخل مرحلة جديدة من حياتها تحاول من خلالها مواكبة ما تعيشه مجتمعاتها من تحولات اقتصادية وغير اقتصادية. ويحدث نفس الشيء حين تتعرض الثقافة للتمزق، إذ يتبع تمزق الثقافة تفتت المجتمع وانقسامه إلى مجتمعات تقيم فيما بينها علاقات جديدة يغلب عليها عادة طابع التنافر، وأحيانا التناحر. وهذا يعني أن وجود المجتمع لا يتم دون ثقافة، وان عناصر الثقافة لا تتشكل في غياب المجتمع، وان العلاقة بين الثقافة والمجتمع هي علاقة عضوية وتكاملية تقوم على التأثير المتبادل.

رغم أهمية الثقافة ودورها الحيوي في حياة المجتمعات الإنسانية ككل، وفي كتابات وإبداعات المثقفين، خاصة الوطنيين والتقليديين منهم، إلا أن المجتمعات الإنسانية القديمة لم تكن على وعي بدور الثقافة المجتمعي، ولذا لم تهتم بها، ولم تعمل على تطويرها والعناية بها. وبينما تتجه غالبية دول العالم اليوم إلى الاهتمام بمفهوم ومكونات "الثقافة الوطنية"، وإقامة مؤسسات ووزارات الثقافة للعناية بها، فان الدول في العصور الغابرة اتجهت إلى إهمال الثقافة إهمالا يكاد أن يكون تاما. ويعود السبب في ذلك إلى اهتمام تلك الدول والإمبراطوريات القديمة بالتوسع على حساب الغير وفرض الضرائب على الناس واستغلال الآخر، وليس إلى بناء مجتمعات متماسكة ذات ثقافات متجانسة. أضف إلى ذلك أن المجتمعات الفلاحية الأولى كانت صغيرة وسكنت أماكن متباعدة ومنعزلة عن بعضها البعض إلى حد كبير، وأنها كونت ثقافات محلية متباينة فيما بينها ولكن متشابهة في عمومياتها، إذ أن تشابه ظروف البيئة الطبيعية وسيادة نمط إنتاج اقتصادي واحد أدى إلى تشابه الثقافات السائدة في كل المجتمعات الزراعية أينما كانت.

بعد ظهور الدولة القومية بداية من القرن السابع عشر اخذ اهتمام الدولة بالثقافة الوطنية يزداد بشكل مضطرد، وفي الواقع لم يتبلور مفهوم الثقافة الوطنية national culture إلا في ظل الدولة الوطنية nation state. ويعود السبب في ذلك إلى اكتشاف حكام ومؤسسي الدولة القومية الأوائل حاجتهم الماسة إلى ثقافة مشتركة ولغة واحدة لتكوين مجتمع واحد يدين بالولاء لدولة واحدة. وهكذا أصبح مفهوم الثقافة الوطنية جزءا لا يتجزأ من مفهوم الدولة القومية، حيث أصبح من غير الممكن تطوير ثقافة وطنية في غياب وطن تحكمه وتدير شؤونه دولة وطنية.

إن حاجة الدولة القومية لثقافة شعبية مشتركة دفعتها إلى محاولة فرض اكبر قدر ممكن من التجانس الثقافي على اكبر قدر ممكن من الأراضي التي سيطرت عليها والشعوب التي حكمتها. ولهذا يشير التاريخ إلى العديد من المشاريع الثقافية التي حاولت دول أوروبا الاستعمارية فرضها على الشعوب التي استعمرتها، واستهدفت من خلالها إعادة هيكلة الثقافات المحلية وتشكيلها في صورة الثقافات الوطنية للدول الاستعمارية. لكن تلك المحاولات لم تنجح حيث باءت بالفشل، وذلك لان الظروف المعيشية وأنماط الإنتاج الاقتصادية في المناطق التي خضعت للاستعمار اختلفت كثيرا ونوعيا عن الظروف المعيشية وأنماط الإنتاج الاقتصادية في دول أوروبا الاستعمارية. ولقد تسببت تلك المحاولات الاستعمارية في الكثير من الحالات والأحيان في حدوث ردود فعل شعبية في الدول المستعمرة أدت إلى نمو شعور قومي كان من نتائجه زيادة وعي الشعوب المستعمرة ومثقفيها بأهمية تكوين ثقافات وطنية خاصة بها، وضرورة تحصين ثقافاتها التقليدية ضد عمليات الغزو الثقافي، وتعزيز قدراتها على المقاومة من خلال إحياء التراث والتوجه نحو رفض الكثير من العناصر الثقافية الدخيلة.

حين تحررت الشعوب المستعمرة من قبضة الأجنبي وتشكلت الدول الوطنية على أراض محررة كانت "الثقافة الوطنية" والاهتمام بها على رأس أولويات الدولة القومية الحديثة. ولقد اتجهت تلك الدولة بوعي أحيانا وبغير وعي في غالبية الأحيان الأخرى إلى إعادة تشكيل الثقافة الوطنية على أسس عقائدية وتراثية تقليدية، مما جعل تلك الثقافات تلبس ثوب العقائدية وتغدو بمثابة هويات خاصة للدول القومية حديثة التكوين. وهذا بدوره جعل الثقافة الوطنية ومكوناتها الرئيسية تصبح منبع الهوية الوطنية وأداة توحيد المجتمع. إلا أنه في ظل ما يسود عالم اليوم من تطور وعولمة اقتصادية وثقافية، لم يعد بالإمكان حماية الثقافة الوطنية، العربية أو غير العربية من رياح التغيير والعبث الثقافية. وبسبب ما يعصف بحياة كل المجتمعات الإنسانية من تيارات فكرية وعقائدية وتراثية ووطنية ومصلحية متعددة المنابع ومتباينة الأهداف فان كافة الثقافات الوطنية دخلت مرحلة التفتت، وأحيانا التمزق. وهذا دفع البعض منها إلى التوجه، أحيانا دون وعي، نحو التمحور حول الذات وتشكيل ثقافات جانبيه، تحتية وفوقية خاصة، أضعفت قدرات الثقافات الوطنية عامة على الصمود والتطور في وجه الثقافات الغازية. فالثقافة التي ينتمي إليها رجل الإعمال والمال والثري اليوم تختلف كثيرا عن ثقافة العامل والفقير، حتى العامل الذي يعمل لديه، وثقافة رجل السياسة والدولة تختلف اختلافا نوعيا عن ثقافة الموظف الصغير والجندي، وثقافة الفئات الليبرالية عموما تختلف جذريا عن ثقافة المحافظين الملتزمين عقائديا.

وفي ضوء تفتت الثقافات تمزقت المجتمعات أيضا، فمجتمع القرية عامة يختلف عن مجتمع البادية، وهذا يختلف عن مجتمع المدينة، ومجتمع الأحياء المثقفة والثرية يختلف عن مجتمع الأحياء الفقيرة والمتخلفة ثقافيا. وهكذا لم يعد بالإمكان، وليس في مصلحة أي مجتمع في الحقيقة أن يتحدث عن مجتمع وطني واحد، أو عن ثقافة وطنية واحدة، أو حتى عن هوية مشتركة. إذ أصبحت عملية إعادة تشكيل الثقافات الوطنية والهويات القومية تتطلب أولا وقبل كل شيء الاعتراف بتفتت الثقافات الوطنية وتمزق المجتمعات عامة، وتتطلب ثانيا إدراك أن ظروف الحاضر تستوجب التفاعل مع ثقافات الغير والاقتباس منها والتلاقح معها.

د. محمد عبد العزيز ربيع

professorrabie@yahoo.com

www.yazour.com